بدايـــة ونهـــايـــة

١



بداية ونهاية

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار الشروق



- ١ -

ألقى الضابط نظرة كئيبة على الردهة الطويلة التى تفتح عليها فصول السنتين الثالثة والرابعة، وقد شمل المدرسة - التوفيقية - سكون عميق، ثم مضى إلى فصل من فصول السنة الثالثة، ونقر على الباب مستأذنا، ودخل متجها صوب المدرس وأسر فى أذنه بضع كلمات، فسدد المدرس بصره صوب تلميذ يجلس فى الصف الثانى وناداه قائلا :

- حسنين كامل على .

فقام التلميذ وهو يردد بين المدرس ولاضابط نظرة مليئة بالترقب والقلق، وغمغم :

- أفندم؟

فقال المدرس :

- اذهب مع حضرة الضابط .

فخرج التلميذ عن قمطره، وتبع الضابط الذى غادر الفصل فى خطوات بطيئة ولم يطمئن قلبه لهذه الدعوة، وراح يسائل نفسه :

ترى أجاء بسبب المظاهرات الأخيرة؟ . وكام قد اشترك فى المظاهرات، وهتف مع الهاتفين : «ليسقط تصريح هور» و«ليسقط هور ابن الثور»، وقد ظن أنه نجا من الرصاص والعصى والعقوبات المدرسية جميعا، فهل كان مغاليا فى ظنه؟ . وسار وراد الضابط فى الردهة الطويلة متفكرا، يتوقع بين لحظة وأخرى أن يجبهه بما عنده من تهم، ولكن قطع عليه تفكيره وقوف الرجل حيال فصل من فصول السنة الرباعة ودخوله مستأذنا، ثم بلغ صوت المدرس وهو ينادى قائلا :

ـ حسين كامل على .

شقيقه أيضا؟! ولكن كيف يمكن أن توجة إليه تهمة من هذه التهم وهو لا يشترك فى المظاهرات بتاتا؟! وعاد الضابط يتبعه الفتى واجما، وما أن وقعت عيناه على شقيقه حتى غمغم فى دهشة :

ـ وأنت أيضا؟! . . ماذا حدث!؟

وتبادلا نظرة حاذرة، ثم تبعا الضابط الطى مضى متسمتا حجرة الناظر . وسأله حسين فى لهة\ رقيقة مؤدبة :

ـ ما الذى أوجب استدعاءنا من الفصل؟

فأجاب الضابط بعد تردد قائلا :

ـ ستقابلان حضرة الناظر .

وقطعوا بقية الردهة دون أن ينبس أحدهم بكلمة . وكان

الشـقـيـقـان متـشـابهـين لـدرجة كـبـيـرة، فلكـاهمـا له هذا الوجـه المستطيل، وعينان عسليتان واسعتان، وبشرة سمراء ضاربة إلى العمق، إلا أن حسين فى التاسعة عشرة، يكبر أخاه بعامين ودونه طولا، على حين يمتاد حسنين بدقةج فى قسمات وجهه أكسبته وضاءة ووسامه. ومضى قلقهما يتزايد وهما يقتربان من حجرة الناظر، وتخايل لعينيهما منظره الصارم فى رهبة وخوف. وزرر الضابط سترتهو ونقر على الباب، ثم دفعه برقة ودخل وهو يومئ إليهما أن يتبعاه. ودخلا وهما ينظران إلى الرجل وقد انكب على مكتبه فى صدر الحجرة يقرأ رسالة بعناية دون أن يرفع بصره نحو القادمين كأنه لم يشعر بحضورهم. و حياة الضابط بأدب جم وقال:

ـ التلميذان حسين كامل وعلى حسنين كامل على.

فرفع الناظر رأسه وهو يطوى الرسالة بيديه، وأطفأ عقب سيجارة فى النافضة، وجعل يردد بصره، ثم تساءل:

ـ فى أى سنة أنتما؟

فقال حسين بصوت متهدج:

ـ رابعة رابع.

وقال حسنين:

ـ ثالثة ثالث.

فنظر إليهما مليا ثم قال:

ـ أرجو أن تكونا رجلين كما ينبغى . لقد توفى والدكما كما أبلغنى أخوكما الأكبر والبقية فى حياتكما . .

ووجما فى ذهو ، ل وانزعاج ، وهتف حسنين وهو لا يدرى قائلا :

ـ توفى أبى ! ! مستحيل !

وغمغم حسين وكأنه يحدث نفسه :

ـ كيف ؟ ! لقد تركناه منذ ساعتين فى صحة جيدة وهو يتأهب للخروج إلى الوزارة . .

فصمت الناظر قليلا ثم سألهما برقة :

ـ ماذا يعمل زخوكما الأكبر ؟

فقال حسين بعقل غائب :

ـ لا شئ . .

فتساءل الرجل :

ـ أليس لكما أخ موظف أو شئ من هذا القبيل ؟

فهز حسين رأسه قائلا :

ـ كلا . .

فقال الرجل :

ـ أرجو أن تتحملا لاصدذمة بقلوب الرجال ، واذهبا الآن إلى البيت كان الله فى عونكما . .

ـ ٢ ـ

وغادرا المدرسة إلى شارع شبرا يلتمسان طريقهما خلل الدموع. وكان حسنينى أسرعهما إلى البكاء فأراد أن ينهره فى حال عصبية ولكن أفحمه البكاء واختنق صوته فلم ينبس بكلمة. وعبرا الطريق إلى الجانب الآخر، وحثا خطواتهما قاصدين عطفة نصر الله على مسيرة دقائق من المدرسة. وتساءل حسنين وهو ينظر إلى شقيقه كالمستغيث:

ـ كيف مات؟

فهز حسين رأسه واجما وتمتم:

ـ لا أدرى. لا أستطيع أن أتصور. لقد تناول فطوره معنا، وتركناه فى صحة جيدة. لا أدرى كيف وقع هذا..

وحاول حسين أن يتذكر الصباح القريب بتفاصيله فذكر أن رأى أباه أول ما رآه وهو عائد من المرافق فحياه قائلا «صباح الخير يا بابا» فأجابه مبتسما: «صباح الخير، ألم يستيقظ أخوك؟» واجتمعوا بعد ذلك حول المائدة، فدعا الرجل الأ إلى مشاركتهم الطعام فاعتذرت بأن نفسها مصدودة، فتذمر الرجل قائلا: «إذا جلست معنا انفتحت نفسك» ولكنها أصرت على الاعتذار، فقال بعدم اكتراث وهو يقشر بيضة: «كلى كيفك». لا يذكر أنه سمعه يتكلم بعد ذلك ، اللهم إلا نحنحة مقتضبة. وكان آخر ما رآه منه ظهره وهو يدخل حجرته مجففا يديه فى منشقته. ثم انتهى،

انتهى، أبشع بها من كلمة. واسترق إلى حسين نظرة مروعة ج فوجده محزونا واجما كأنما كبر وشاخ، وعاد إلى ذكرياته وهو يكابد لوعة حارة. «لا أصدق أنه مات». لا أستطيع أن أصدق. ما هو الموت؟. لا أستطيع أن أصدقه. انتهى؟! لوكنت أعلم أن هذا آخر ما بقى لنا من عمره مال غادرت البيت. من أين لى زن أعلم؟ زيموت الإنسان وهو يأكل ويضحك؟ لا أصدق. لا أستطيع أن أصدق. وانتبه على زخيه وهو يجذبه من ذراعه إلى عطفة نصر الله التى كاد يفوتها فى ذهوله. وسارا فى طريقها الضيق تصطف على جانبيه البيوت القديمة والحوانيت الصغيرة إلى ما يعترضها من عربات الغاز والخضر والفاكهة. وسبقها البصر إلى عمارتهما ذات الأدوار الثلاثة والفناء المستطيل الترب، ثم ترامى إلى أذنهما الصوات فتبينا صوتى أمهما وأختهما الكبرى وهزهما حتى الأعماق فأجهشا فى البكاء، وجريا لا يلويان على شئ، وارتقيا السلم مهرولين إلى الدور الثانى فوجدا باب الشقة مفتوحا فتدافعا إلى الداخل، وقطعا الصالة إلى حجرة الأب فى نهايتها ثم دخلا وهما يلهثان. . وثبتت عيناهما على الفراش وقد وشى الغطاء بالجسم المدد تحته، ثم اقتربا من حافته وارتميا عليه وغرقا فى نشيج خار، وكفت الأ والأخت عن الصوات على حين غادرت الحجرالة امرأتان غريبتان. وأرادت الأم أن تتركهما ينفسان على صدرهما فتماسكت واقفة فى جلبابها الأسود وقد احنرت عيناها وانتفخ خداها وأنفها، أما الأخت فقد ارتمت على كنبة وأخفت وجهاا فى مسندها وراح جسمها ينتفض من الكباء. وكان حسين يبكى ولسانه يتلو بطريقة آلية بعض السور الصغيرة

استنزالا للرحمة. وكان حسنينى يبكى فى جو من الخوف والذهول والإنكار. وقف حيال الموت محتجا ثائرا ولكن فى نفس الوقت خائفا يائسا. «ليس هذا بأبى. لا يمكن أن يسمع أبى هذا البكاء كله دون أن يتحرك. رباه لماذا يجمد هكذا؟ إنهم يبكون ولكن رفى تسليم من لا حيلة له. لم أكن أتصور هذاو ولا أتصوره. ألم أره يمشى فى هذه الحجرة منذ ساعتين؟ ليس هذا أبى. وليست هذه حياة» وبدا الانتظار وكأن لا نهاية له فاقتربى الأم من الشابين ومالت نحوهما قائلة:

ـ حسبكما. قم يا حسين خذا أخاك خارجا.

وأعادت القول حتى قام حسين وأنهض أخاه ولكنهما لم يغادرا الحجرة. وقفا يلقيان على الجدث المسجى نظرة طويلة غائمة بالدموع. ولم يستطع حسين أن يقاوم رغبة حارة غامضة فانحنى على الجثمان وكشف الغطاء عن وجهه دون مبالاه بالحركة التى بدرت من أمه. فطالعه الوجه الغريب موسوما بميسم الفناء، تشوبه زرقة مروعة، ويرين على صفحته سكون غير دنيوى، فى عمق العدم ولا نهائيته، فسرت رجفة فى أوصاله. ثم يكن أحد منهما قد رأى ميتا قبل هذه المرة فركبها الخوف والأسى. ونفذ إلى أعماقها حزن قهار إليحيث لم تنفذ عاطفة من قبل. وما حسين نحو الميت ولثم جبينه فى شبه غيبوبة. وأعادت الأم الغطاء على الرأس الفانى، وحالت بينهما وبين الفراش، ثم قالت لهما بلهجة حازمة:

ـ اخرجا..

فتراجعا خطوتين، وتولى حسنين عناد طارئ فتوقف، وتشجع به حسين فتوقف كذلك. وجال بصرها بالحجرة فيما يشبه الذهول، وكأنهما كانا يتوقعان تغيرا شاملا لا يدريانه، ولكنهما وجداهما كالعهد بها لم يتغير منها شئ. هذا الفراش على يمين الداخل، والصوان فى لاصدر يليله المشجب، وإلى اليسار الكنبة التى ارتمت عليها الزخت وقد أسند إلى حافتها عود انغرست ريشته بين أوتاره، وثبتت عيازن، طالما لعبت أنامل الراحل بهذه الأوتار، وطالما التف حولها الأصدقاء مطرين يستعيدون ويعيد، فما أعجب ما بين الطرب والحزن من خيط رقيق، أرق من هذا التوتر، ثم مر باعثة دقاتها الهامسة، ولعل الراحل قد قرأ فيها آخر تاريخ له فى الدنيا وأول عهدها باليتم. وهذا قميصه على المشجب وقد لا حت آثار عرقه الإنسان أشد ثباتا من حياته العظيمة. ولبثت الأم تنظر إليهما فى صمت. لم تجر لها خواطرها على بال ولكنها كانت تدرك من هول الكارثة ما لم يدر لهما بخلد. وندت من حسين تنهده حارة لفتت إليه شقيقه فوضع يده على كتفه وهمس فى أذنه:

ـ هلم بنا.

وألقى الشابان نظرة أخيرة على الجثمان المسجى وهما يعتقدان ـ بحكم العادة المتوارثة ـ أن عينى أبيهما تريانهما رغم الموت فلم يولياه ظهرهما أن يسئ إعراضهما إلى شعوره، وبعثا إليه بتحية قلبيةج وتقهقرا إلى الاب ثم غادرا الحجرة. ولاحت من حسنينى نظرة إلى أخيه فطالع فى وجهه حزنا عميقا مؤثرا فخفق قلبه وأحس نحوه بالعطف، كما أحس بحاجته الشديدة إلى عطفه..

ـ ٣ ـ

وغادرا الشقفيقان الشقة إلى باب العمارة حيث اصطفت بعض الكراسى فوجدا أخاهما الأكبر ـ حسن ـ جالسا فى صمت وكآبة. وجلسا إلى جانبيه يشار كانه صمته وكآبته. لم يكن لديهما فكرة عما ينبغى عمله، أما حسن فكان ذا تجارب كثيرة، وكان يشبه أخويه بيد أنه اختلف عنهما فى نظرة عينيه التى تنم عن جرأة واستهتار، فضلا عن أن طريقته فى ترجيل شعره الكثيف المنفوخ، ولبس البدلة، دلت على عنايته بنفسه من ناحية، وعلى قدرو غير قليل من الابتذال من ناحية أخرى. كان حسن يعلم بما ينبغى عمله ولكنه لم يبد حراكا لأنه كان ينتظر مقدم شخص هام. وقد سأله حسين بتأثر:

ـ كيف مات والدنا؟

فأجاب قائلا وهو يقطبق:

ـ مات فحأة فأذهلنا جميعا، كان يرتدى ملابسه وكنت جالسا فى لاصالة فما أدرى إلا ووالدتنا تنادينى بفزع، فهرعت إلى الحجرة. فوجدته ملقى على الكنبة وصدره يعلو وينخفض. وجعل يومئ فى ألم إلى صدره وقلبه فحملناه إلى الفراش، وقدمنا له كوب ماء ولكنه لم يستطع أن يشرب. ثم غادرت الحجرة مسرعا لاستدعاء طبيب، ولكنى لم أكد أبلغ الفناء حتى صك مسمعى صوات حاد فعدت فزعا، ووجدت أن كل شئ انتهى..

ورأى وجهى شقيقيه يتقلصان من الألم فازداد وجهه كآبة. كان يشعر بحرج شديد جعله يتوجس خيفة من شقيقه أن يظنا بحزنه الظنون. كان يعلما بطبيعة الحال بما كان يقع بينه وبين والديه من شقاق وملاحاة بسبب حياته المضطربة المستهترة. فخاف أن يحسباه دونهما حزنا وأسفا. والحق أنه يجد لوعة الحزن والأسى. والحق أنه لم يبغض أباه قط على رغم ما كان. وإذا لم يكن حزنه كحزنهما فمرجع هذا إلى تقدمه عنهما فى السن ـ كان فى الخامسة والعشرين ـ وإلى تمرسه بالحياة حلوها ومرها، مرها على الأكثر، الأمر الذى يلطف عادة من مرارة الموت. حقا كان قلبه يحدثه بأنه لن يجد بعد اليوم من يصرخ فى وجهه قائلا: «لا أستطيع أن أعول رجلا خائبا مثلك إلى الأبد، فما دمت قد نبذت الحياة المدرسية فشق سبيلك بنفسك ولا تلق بنفسك على». حقا لن يجد من يقول له هذا بعد اليوم، ولكنه لن يجد كذلك من يؤويه إذا ضاقت به السبل وكثيرا ما تضيق به حتى لا يوجد منها منفذ لأمل. إنه أعظم إدراكا لحقيقة الكارثة التى وقعت من هذين الطفلين الكبيرين فكيف تنقصه دواعى الحزن والأسف؟!.
واختلس من الوجهين المحزونين نظرة سريعة من عينيه البراقتين ثم عض شفيتيه، كان يحبهما على رغم الظروف التى تدعوه إلى الحقد عهليهما وفى مقدمتها جميعا حياتهما المدرسية وتمتعهما بعطف أبيه. ولكنه لم يكن يرى فى المدرسة ميزة يحسد عليها أحد، ومن ناحية أخرى كان مقتنعا بأن أباه يحبه كشقيقيه وإن ران على حبه السخط والغضب، وأهم من هذا كله أن الشعور برابطة الأسرة كان ولا يزال قويا فى آل كامل بفضل الأم قبل كل شئ.

وعند الضحى أقبل عليهم رجل وامرأة فى ثياب ريفيفة فعرفوا فيهما خالتهم وزوجها عن فرج سليمان، وقد عزاهم الرجل وشاركهم جلستهم، وعلى حين هرولت الخالة إلى الداخل وهى تصرخ «يا خراب بيتك يا اختى» فدوت العبارة فى آذانهم دويا مفجعا وعاود الشابين البكاء. وراح عم فرج سليمان يحادث حسن بينا خلا الشقيقان إلى نفسيهما فى صمت طويل. والتقت أفكارهما وهما لا يدريان فى مصير أبيهما بعد الموت، وكان حسين راسخ العقيدة عن وراثة وبعض العلم فلم يداخله شك فى النهاية، وسأل الله بقلبه أن يلقى أباه فى ذلك اليوم البعيد وهما على أحسن حال من رضوان الله. وأما حسنين فكان فى حيرة من كرب الموت لا يدع للعقل راحة للتأمل والتفكير، وكان يسلم بالإيمان تسليما وراثيا لا شأن فيه للفكر، وقد حملته أمه يوما على أداء الفرائض فأداها دون وعى، ثم هجرها فى شئ من التردد دون تكذيب أو زيغ. ولم تتسلط العقيدة على فكره. ولم تشغل باله كثيرا، ولكنه لم يجد نفسه خارجا على حقائقها قط. وقد دفعه الموت إلى التفكير ولكنه لم يطل به، وسرعان ما عاوده التسليم تؤيده هذه المرة عاطفة حادة: «هل الموت هو النهاية؟. ألا يبقى من أبى إلا التراب ولا شئ وراء هذا؟. معاذ الله. لن يكون هذا. إن كلام الله لا يكذب». ولبث حسن وحده لا يشغله شئ من هذه الأفكار ولم يستطع الموت نفسه أن يدعوها إلى رأسه. كأنه كان وثنيا بالفطرة. والحقيقة أنه لم يتأثر بأى نوع من التربية أو التهذيب. كان ابن الشارع كما كان يدعوه أبوه فى ساعات الغضب. وقد طبع على العبث فلم يعد قلبه تربة صالحة لبذور

العقيدة، وما انفك يتخذ منها مادة لمزاجه ودعابته، وحتى الأثر الخفيف الذى علق بقلبه من وحى أمه ضاع فى خضم الحياة التى اكتوى بنارها، لذلك تاه به الفكر فى وديان بعيدة عن الأبدية تتركز حول هذه الحياة وحضه أسرته منها. بيد أنه لم يم يطل به المكث مع شقيقيه وزوج خالته فقد تراءى عن بعد رجل يهرول قادما ما أن وقع بصر حسن عليه حتى قال بارتياح كأنه كان ينتظره:

ـ فريد أفندى محمد؟!

وكان القادم يجفف حبينه على رغم لطافج الجو الخريفى، ولكنه كان بدينا مفرطا فى البدانة، ذا كرش عظيمة، ووجه مستدير مكتنز لاحت فيه قسماته دقيقة صغيرة، على أن بدانته وكهولته وأناقته أيضا أضفت عليه وقارا مما يعتز به موظفوا الحكومة والكتبة منهم خاصة. وعلقن به أعين الإخوة برجاء يستحقه من كان جارا مثله وصديقا قديما لأبيهم، وأقبل الرجل عليهم معزيا. ثم خاطب حسن قائلا:

ـ طلبت إجازة اليوم من الوزارة. هلم بنا إلى ديوان المرحوم لصرف الدفنة ثم لا بتياع الللوازم الضرورية.

وجعل يسأل عما كان وصاه به قبل ذهابه إلى الوزارة من إجراءات تستدعيها الوفاة، ثم تأبط ذراعه وذهبا معا..

ـ ٤ ـ

وعند القتراب موعد الجنازة بلغ الاضطراب بحسنين مداه، اضطراب من نوع جديد كان يشغله عن الحزن نفسه. كان يرجو

لأبيه جنازة رائعة تليق بمقامه وبمكانته هو التى يجب أن يظهر بها أمام الناس. لم يكن أخواه ليكترثا كثيرا لهذا الأمر، أما هو فكان يعد إخفاق الجنازة كارثة كالموت نفسه، غضبا لأبيه الذى يحبه، ولنفسه هو. وقلب عينيه فيمن تجمع من المشيعين فلم ير أحدا يملأ العين إلا جارهم الكريم فزيد أفندى محمد. أما زوج خالته فكان فى حكم العمال، وليس عم جابر سليمان البقال بخير منه. والحلاق أدهى وأمر، ونفر غيرهم غيابهم أشرف من حضورهم. وانقبض صدره وغشية كدر عميق. ولكنه كان قليل الصبر فما وافت الساعة الرابعة حتى تدفقت جماعات الموظفين حتى سدوا عطفة نصر الله سدا، وردت إليه الروح فعاد إلى حزنه خالصا من القلق. ثم حدث ما لم يدر له فى حسبان، فجاءت سيارة فخمة تنطق بالعز والجاه، ووقفت على بعد ينزل منها رجل ينم منظره على الألقاب والرتب. وتقدم بجسمه الطويل العريض الذى عقدت عليه الخمسون هالة من وقار فهرع إليه الإخوة بأدب، واندس بينهم فريد أفندى محمد ليحظى باستقبال الشخصية الممتازة التى ينبغى أن يقدرها ـ كموظف ـ أكثر من سواه، وتساءل القادم فى صوت منخفض:

ـ أليس هذا بيت المرحوم كامل أفندى على؟

فبادر فريد أفندى قائلا باحترام:

ـ بلى ياسعادة البك..

ولم يجدوا ما يقدمونه له إلا كرسيا خيرزانا على قارعة الطريق فشعروا بحرج غير قليل. وكان حسنينى قد امتلأ ارتياحا لمقدمه

ولكنه وجد ضيقا لسؤاله عن بيت المرحوم مما دل على أنه لم يعرف البيت، واقترب من أخيه حسن يسأله :

ـ من يكون هذا الرجل؟

فقال حسن :

ـ أحمد بك يسرى، مفتش عظيم بالداخلية، وصديق حميم للمرحوم . . فسأله بغرابة :

ـ لماذا سأل عن البيت كأنه لا يعرفه؟

فحدجه حسن بنظرة غريبة وقال :

ـ كان والدنا كثير التردد على بيته، أما هو . . رنه رجل عظيم كما ترى . . ! وصمت الشاب لحظة ثم استدار قائلا :

ـ كان المرحوم يحبه ويعده أعز صديق .

وتناسى حسنين هذا، ولم يشأ أن يفسد على نفسه زهوها، وود لو يراه ـ ذلك المفتش ـ المشيعون جميعا . ثم حلت اللحظة المفجعة فخرج النعش من البيت وعلا الصوات من الشرفة والنوافذ. انتظمت الجنازة بالمشيعين جميعا يتقدمهم النعش. وعلقت أعين الشقيقين بالنعش فى ذهول وإنكار، وتساقط دمعهما طوال الطريق . و، بلغوا المسجد وأخذوا فى توديع المشيعين وشكرهم . وأظهر البعض استعدادا لمرافقة النعش حتى مستقره الزخير، ولكن حسنين همس فى أذن أخيه الأكبر قائلا :

ـ لا تسمح لأحد بالذهاب مهما كلفك الأمر .

كان حريصا على ألا تقع عين على القبر حفظا لكرامة الأسرة ووفقوا إلى صرف المشيعين، وركبوا سيارة الموتى وليس فى ركابهم إلا عم فرج سليمان وفريد أفندى محمد الذى أبى الرجوع إباء لم ينفع فيه الرجاء. وانطلقت السيارة بهم إلى باب النصر، ووقفت بهم ناحية قامت بها القبور فى العراء ثم ووري جثمان كامل أفندى فى قبر غير بعيد من الطريق الملتوى الذى يشق المدافن كأنه من قبور الصدقة، ووقف حسنين غارقا فى الحزن والبكاء، ولكنه على حزنه كان يسترق النظرات إلى فريد افندى محمد فى خجل واستياء «لو علم التلاميذ بالوفاة لجاءوا معزين، ولرافقنى بعضهم حتما إلى هذا القبر. الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه. لا مقبرة ولا يحزنون. لماذا لم يبن والدنا مقبرة تليق بأسرتنا!؟».

ـ ٥ ـ

انتصف الليل أو كاد، وخلت الشقة إلا من أهلها. وآوت الأسرة إلى الصالة ومعهم الخالة وزوجها. وراحت الأم تعيد قصة الوفاة للمرة العشرين فى ذلك اليوم الحزين، وأنصت إليها حسين وحسنين باهتمام، على حين وجم حسن متفكرا.

وتحدث حسنين عن أحمد بك يسرى متحاشيا مسألة جهله للبيت لوجود خالته وزوجها من ناحية، ولأنه لم يكن يحب أن يذكرها من ناحية أخرى. وكان شعور العطف نحو والده يملأ عليه نفسه فجعل يرنو إلى باب حجرته المغلقة بطرف حزين. م ويتخيل

فراشه الخالى بإنكار وأسف. ثم نظرت الأم إلى الأبناء وقالت:

ـ قوموا للنوم..

وأذعنوا لمشيئتها لا اعتراض بعد يوم شاق أليم، ومضوا إلى حجرتهم. وكان بالحجرة ثالثة أسرة صغيرة فأهلوا واحدا لزوج خالتهم الذى لحق بهم على الأثر، وشارك حسنين فى فراشه. ولكنهم لم يستسلموا للنوم، أو تأبى النوم عليهم، فراحوا يتحدثون عن أبيهم بحزن وحنان، ويذكرون زياما الأخيرة وميتته المفاجئة، ثم قال حسين:

ـ كانت جنازته تليق بمقامه حقا..

فقال عم فرج سليمان مؤمنا على قوله:

ـ كان رحمة الله رحمة واسعة رجلا عظيما، فلا عجب أن رتكون جنازته عظيمه مثله، ولقد امتلأت عطفة نصر الله بالمشيعيين من البيت إلى شارع شبرا.

ولم يرتح حسنين لصوت الرجل، وكان يشعر لوجوده بضيق، ثم ذكر حانقا أنه رأى القبر العارى، فقال:

ـ العجيب أن والدنا وقد أفنى مالا كثيرا لم يفكر فى بناء مقبرة تليق بالأسرة. وعندنا بالريف كثيرون يتزوجون للمرة الثانية أو الثالثة فى هذه السن. وصمت الرجل مليا ثم استدار قائلا:

ـ ولا تنس أن والدك قد هاجر مع جدته من دمياط إلى القاهرة وهو فى مثل سنك يا حسنين، فلستم من أهل القاهرة الذين يتوارثون المقابر جيلا بعد جيل.

فقال حسنين بامتعاض :

ـ حقا لسنا من أهل القاهرة وإن كانت آسبابنا بآلنا فى دمياط قد انقطعت .

وذكر فى حزن أنه لا يعرف لنفسه أقارب غير خالته هذه . وسيبقى هذا القبر المغمور فى العراء رمزا لضياعهم المخجل فى هذه المدينة . وازداد ضيقا بوجود هذا الرجل الذى احتل فراشه . فآثر الصمت حتى يقطع عليه سبيل الكلام . وساد الصمت حتى رنّق النوم بأجفانهم . وفى الصالة لم تبارح الأم وأختها وابنتها مجلسهن ، ولم يتعبن من الحديث عن الفقيد العزيز . وكان الشعور بالفاجعة هنا أعمق من الحجرة الأخرى . وقد ارتسمت أماراته على وجه الأم النحيل البيض وعينيها الملتهبتين . وكانت بأنفها القصير الغليظ وذقنها المدبب وجسمها النحيل القصير توحى بأنها وهبت الأسرة خير ما فيهاو فلم يبق من حيويتها إلا نظرة قوية تنم عن الصبر والعزم .

وكان التغير الطارئ عليها من العمق بحيث يتعذر تصور ما كانت عليه أيام شبابها ، إلا أن ابنتها نفيسة كانت تعيد حياتها وصورتها بدقة كبيرة . كان لها هذا الوجه البيضاوى النحيل والأنف القصير الغليظ القصير والذقن المدبب ، إلى شحوب فى البشرة ، واحديداب قليل فى أعلى الظهر ، فلم تكن تختلف عن أمها إلا فى طولها المماثل لطول شقيقها حسنين . كانت بعيدة عن الوسامة وأدنى إلى الدمامة ، وكان من سوء الحظ أن خلقت على مثال أمها ، على حين ورث الإخوة خلقة أبيهم . وكان الحزن قد

أتى عليها فبدت فى صورة بشعة واستغرقت فكرها ذكريات والدها الحبيب. أما الأم فعلى حزنها الشديد دارت برأسها خواطر أخرى. كان يداخلها نحو أختها شعور بعدم الارتياح. ولم تستطع أن تنسى أنها كانت تنغص عليها حياتخا، وأنها كان يحلو لها كثيرا أن تقارن بين حظيهما فتقول: إن أختها تزوجت من موظف أما زوجها هى فعامل فى محلج فقطن، وزن أختها فى القاهرة وهى مقضى عليها بالحياة فى الريف، وأن أبناء أختها تلاميذ وأبناءها هى لا حظ لهم إلا حظ العمال، وإن كرار أختها لا ينضب معينة أما بيتها فلا يعرف السعة إلا فى المواسم. لعلها لا تجد آلان ما تحسدها عليه. وامتلأت نفسها امتعاضا إلى ما بها من حزن. إنها تدرك من هول الكارثة ما لا يدركه أحد، انتهى زوجها، وإنها لتتلفت يمنه ويسره فلا تجد أحد تعرفه إلا هذه الأخت التى لا يعقد بها رجاء. لا قريب ولا نسيب. ولم يخلف الراحل شيئا. وهيهات أن تأمل فى معاش مناسب وقد كان مرتبه كله يستنفذ فى ضرورات الأسرة. وقد وجدت فى محفظته جنيهين وسبعين قرشا هى كل ما تملك من نقود حتى تنتظم الأمور.. ورنا بصرها إلى حجرة الأبناء فى سهوم. اثنان فى المدرسة، معفيان من المصريف حقا، ولكن هيهات أن يغنى هذا عنهما شيئا. أما الثالث ففى حكم الصعاليك!.. وتنهدت من الأعماق. ثم حولت عينيها إلى نفيسة فتقطع قلبها ألما. فتاه فى الثالثة والعشرين من عمرها بلا مال ولا جمال ولا أب. وهذه الأسرة التى باتت مسئولة عنها بلا معين. بيد أنها لم تكن من النساء اللاتى يفضضن همومهن بالدموع. وأن حياتها الماضية وإن

مست حلما سعيدا موليا إلا أنها لم تكن يسيرة خصوصا فى مطلعها حين كان المرحوم موظفا صغيرا ذا جنيهات معدودات، وقد علمتها الصبر والجلد والكفاح. كانت دائما قوية، وكانت محور البيت الأول، بل كانت على الأرجح تقوم بدور الأب، على حين كان المرحوم أدنى إلى حنان الأمهات وضعفهن. والأبناء أنفسهم مثال حى على التباين بين الأب والأم، فكان حسن شاهدا تعيسا على رخاوة الأب وتدليله، وكان حسين وحسنين شاهدين على حزم الأم وحسن تربيتها. أجل كانت أرملة قوية، ولكنها لم تملك فى تلك اللحظة من الليل إلا اجترار الحزن والقلق..

-٦-

فى مساء اليوم التالى لم يبق فى الدار أحد غير أهلها وقد كوم أثاث حجرة الراحخل فى ركن منها وأغلق بابها. واجتمع الأبناء حول أمهم وهم يشعرون بأنه آن لهم أن يسمعوا لها. وكانت الأم تعلم بأنه ينبغى لها أن تتكلم. ولم يختلط عليها الأمر فيما يجب قوله، فقد كانت فكرت فأطالت التفكير، ولعله لم يكن يحيرها شئ مثل هذا التناقض بين ظاهرها الدال على الحزم والقوة، وباطنها الذى يندى رحمة وعطفا على أسرتها البائسة. وخفضت عينيها متحامية النظرات المصوبة نحوها وقالت:

ـ مصيبتنا فادحة، ليس لنا إلا الله، والله لا ينسى عباده.

لم يكن بوسعها أن تتساءل «ما عسى أن نفعل؟»، وهيهات أن تنتظر جوابا من أحد المحيطين بها، حتى كبيرهم حسن. وليس فى الدنيا أحد تستطيع أن تلقى إليه بهذه الاستعانةج فتشركه فى بعض همها.

شعرت بالخلاء يكتنفها، ولكنها أبت أن تستلم لليأس. واستدارت تقول:

ـ ليس لنا من قريب نعتمد عليه، وقد رحل العزيز الغالى دون أن يترك شيئا إلا معاشه، ولا شك أنه دون المرتب الذى كان لا يكاد يكفينا. فالحياة تبدو كالحة الوجه، ولكن الله لا ينسى عباده. وكم من أسرة مثلنا صبرت حتى أخذ الله بيدها فشقت طريقها إلى بر الأمان..

واختنق صوت نفيسة بالبكاء وهى تقول:

ـ لا أحد يموت جوعا فى هذه الدنيا، ويسأخذ الله بيدنا، أما المصيبة التى تجل عن العزاء فهى موته هو. أسفى عليك يا بابا.

ولم تحدث هذه الدموع زثرا عميقا لأن كلام الأم أنذر بأمور خطيرة استأثرت بجل اهتمامهم، فثبتت أعينهم على أمهم التى عادت تقول:

ـ لا يجوز إذن نيأس من رحمة الله، ولكن ينبغى أن نعرف رأسنا من قدمنا وإلا هلكنا، وأن نوطن نفوسنا على تحمل ما قدر لنا من حظ وصبر وكرامة، وربنا معنا.

وأحست بأن معين الكلام العام قد نفد، وأنه ينبغى أن تخاطب

الأبناء، كل بما يعنيه، ورأت عن حكمة أن تبدأ بمن هو أقل خطورة، تمهد به لمن هو أشد خطورة، فنظرت صوب حسين وحسنين، وقالت بصوت هادئ أن تكشف عما لحق قلبها من تأثر:

ـ لن يكون فى الإمكان إعطاؤ كما أى مصروف يومى، ومن حسن الحظ أن المصروف ينفق عادة فى وجوه تافهة . .

وجوه تافهة. اشتراك نادى الكرة، اتلسينما، الروايات. أهذه وجوه تافهة؟!. وقد تلقى حسين الحكم فى وجوم، وتاه متخيلا الحخياة بال مصروف، ولكن دون أن ينبس بكلمة. أما حسنين فقد انقض الحكم عليه كالصاعقة، وسرعان ما قال معترضا، وبال وعى تقريبا:

ـ كل المصروف؟!. ولا مليم؟!.

فحدجته أمه بنظرة طويلة ثم قالت بحزم:

ـ ولا مليم . .

أحزنها اعترضه، ولكنها رحبت به لأنه أتاح لها أن تؤكد قولها بما لا يدع سبيلا إلى الشك فيه، ولكى يسمعه شخص آخر تخشى متاعبه أكثر من شقيقه. وفتح حسنين شفتيه، وهمهم دون أن بين، ثم قال بصوت منخفض ـ سنكون التلميذين الوحيدين اللذين تخلو جيوبهما من مصروف . .

فقالت أمه بحده:

إنك واهم، المصائب كثيرة والتلاميذ المصابون لا حصر لهم، ولو أنك فتشت جيوب التلاميذ جميعا لوجدت أكثرها فارغا. وهبكما الوحيدين الفقيرين فما فى هذا من عيب، ولست المسئولة عما وقع . .

ولاذ حسنين بالصمت متذكرا أنه يخاطب أمه. كان دائما يجد عند أبيه من التسامح ما لا يجدها عندها، وكان الرجل يحبه كثيرا فلم ينزل من نفسه هذه المنزلة إلا ابنته نفيسة. أما الأم فلم تكن تتخلى عن حزمها قط. ولما فرغت من الرد على اعتراضها استردت قائلة:

ـ كذلك أحذر م ترك نصيبكما من الغداء المدرسى كما تفعلان عادة. وكان الشقيقان يقنعان من غذائهما المدرسى بلقمات معدودات كى يتناولا وجبتهما الرئيسية فى البيت. وكان التلاميذ الذين يأكلون فى المدرسة حتى الشبع موضع غمز عادة.

فتساءل حسنين برقة:

ـ لماذا لا نأكل فى بيتنا كعادتنا؟

فقالت الأم بامتعاض:

ـ من يدرى فلعله لن يتاح للبيت الطعام الذى تحب!

وارتسمت على شفتى حسن ـ الذى أصغى إلى الحديث كله فى صمت عميق ـ شبه ابتسامة، أخفاها بتقطيبة مصطنعة، ولكنها لم تخف عن الز، فصممت على أن تواجهه بالحقيقة ـ رن كان حقا فى حاجة إلى ذلك ـ بعد هذا التمهيد الطويل، فتساءلت بلهجة حزينة:

ـ وأنت يا حسن؟!.

هذا أكبر الأبناء، أول من أيقظ أمومتها، الحبيب الأول.! ولكنه دليل ملموس على أن الأمومة قد تتأثر بأمور لا تمت للفطرة بسبب. لا يعنى هذا بطبيعة الحال أنه كرهته. إنها أبعد ما يكون عن هذا. ولكنها أسقطته من حسابها فتوارى من مرموق آمالها فى حسرة بالغة. انزوى فى ركن مظلم، ولم يعد حبه يتحرك فى فؤادها إلا مصحوبا بالأسف والحزن وقاتم الذكريات. وقد كان ولا يزال المشكلة المستعصية لهذه الأسرة. كان فى البدء ضحية لفقر أبيه وتدليله، فلم يبعث إلى المدرسة إلا فى سن متأخرة. وسرعان ما ظهر تمرده على الحياة المدرسية، وتكرر هروبه من المدرسة، وتوالى سقوطه عاما بعد عام، حتى انقطع عنها ولم يجاوز السنة الثالثة. واستحال ما بينه وبين أبيه إلى نقار وشجار ثم إلى ما يشبه بالعداوة الحقة، فكان يطرده أحيانا من البيت فيقضى أياما متسكعا ثم يعود إلنة الأشقياء والغوص فى الإثم والإدمان وهو دون العشرين. ولما بلغ اليأس من أبيه مداه ألحقه بحانوت بقال فمكث به شهرا ثم طرده صاحبه بعد معركة كاد يذهب الحانوت ضحية لها. ثم عمل فى شركة سيارات وطرد منها أثر عراك أيضا. ولم يعد يأبه لا بغضب أبيه ولا بحزم أمه ففرض نفسه على البيت فرضا. يلقى سخطهم باستهانة أو بدعابة أو بشجار ولكنه لا يتزحزح ولا يبحث جادا عن عمل. وبدا وكأنه لا يعمل للمستقبل حسابا، وظل سادرا مستهترا حتى فاجأ موت الأب. إنه يدرك خطورة الحال، فهو الوحيد الذى عرف مرتب أبيه، وقدر على وجه التقريب معاشه. وفهم ما تعنى الأم

بتساؤلها «وأنت يا حسن» . «أنت تقولين أن الله لا ينسى عباده . وأنا عبد من عباده . فلننظر كيف يذكرنا . لماذا أخذ والدنا؟ ولماذا يعلن عن حكمته على حساب أمثالنا من الضحايا؟» ولكنه طالعها بابتسامة مؤدبة، وشعور ممتلئ عطفا وتقديرا للمسئولية، ثم قال :

ـ إنى أدرك كل شئ . .

فقالت المرأة فى ضيق متساءلة :

ـ ما عسى أن يجدى الإدراك وحده؟

ـ لا بد من عمل شئ .

فقالت فى انفعال :

ـ هذا ما نسمعه كثيرا .

ـ الآن تغير الحال .

ـ أليس ثمة أمل أن تتغير أنت؟!

فقال حسن فى نبرات قوية :

ـ مثلى لا يضيع فى الحياة، إنى أستطيع أن أشق سبيلى . والفرص كثيرة والأسلحة فى يدى لا حصر لها . أصغ رلى يا أماه لن أطالبك بغير المأوى واللقمة! . .

هذا أسلوبه! . . يبدو وكأنه يسلم بكل شئ، ثم ينتهى وكأنه يطالب بحقوق جديدة، المأوى واللقمة، وماذا يبقى بعد ذلك؟ ورمقته باستياء وقالت :

ـ إن حالنا لا يحتمل هذا الهذر . .

ـ الهذر؟!

ـ أجل . نحن فى حاجة إلى من يطعمنا فكيف نهيئ لك اللقمة؟! لماذا تضطرنى إلى مصارحتك بهذا؟

فابتسم ابتسامة باهتة وقال :

ـ أعنى إلى حين . حين تنفرج . لن يضيق يالبيت بى . أ تريدين أن تطردينى؟! . وسوف ألتقط رزقى ما وجدت إليه سبيلا . ولكن هبى أياما انقضت دون أن أجد عملا فلا أحسبك ترضين أن أموت جوعا . وعلى أية حال سأقاسمك رغيفك حتى زجد عملا! .

وتنهدت فى يأس . إنها حيال مشكلة حخقا ولا تدرى ماذا تفعل . وأخوف ما تخاف أن يستسلم لحياة البطالة والكسل والتسكع خاصة إذا فتر تأثره بموت أبيه فقالت برجاء :

ـ أرجو أن تبحث بجد وإخلاص عن عمل . .

فقال بلهجة تنم عن الصدق :

ـ أعدك بهذا . وأقسم لك بقبر والدنا .

وأثار قسمه عاصفة حزن فى الصدور لموقعة الأليم . . وهزتهم «قبر والدنا» هزة عنيفة ، فأجهشت نفيسة فى البكاء ، وغاص قلب حسنين فى صدره . على حين رمق حسين بنظرة حيرة وعتاب . ولبثت الزم صامتة مليا تكابد جرزحا عميقا ، ولكنها لم تنس ـ حتى فى هذه اللحظة ـ أنها بم تفرغ بعد من قول ما تريد قوله ،

فردت عينيها اللتين انتفخ جفناهما واحمرت أشفارها بين أبناءها ثم قالت :

ـ أما نفيسة فتحسن الخياطة . وهى تخيط كثيرا لجاراتنا محبة ومجاملة ، ولست أرى بأسا فى أن تتقاضى على تعبها مكافأة .

وهتف حسن بحماس :

ـ عين الصواب . .

ولكن حسنين صاح بغضب وقد اصفر وجهه غضبا :

ـ خياطة؟! .

فأجابه حسن معترضا :

ـ ما عيب إلا العيب ، فلتكن . .

فقال حسنين بحدة :

ـ لن تكون أختى خياطة ، كلا ، ولن أكون زخا لخياطة .

وقطبت الأم فى غضب وصاحت به :

ـ أنت ثور ، تأكل وتنام ، ولا تدرى عن الدنيا شيئا ، وهيهات أن يفهم عقلك الغبى حقيقة حالنا!

وفتح فاه ليعترض ولكنها صاحت به :

ـ اخرس . .

فنفخ دون أن ينبس بكلمة . ورأت الأم أنها فرغت من

معارضته فالتفتت إلى حسين، فالتفت عيناهما برهة قصيرة، ثم خفض الفتى عينيه وتمتم على مضض:

ـ إذا لم يكن من هذا بد فالأمر لله. . !

فقالت الز بتأثر:

ـ ما عيب إلا العيب كما يقول حسن. لست أحب لأحد منكم المهانة ولكن للضرورة أحكام، ولا حيلة لى. .

وساد صمت مؤلم. وكان حسين أشبه الأبناء بأخلاق أمه فى صبرها وعقلها وإخلاصها للأسرة. وقد تألم كثيرا لمصير أخته ولكنه استسخف الاعتراض على اقتراح أوحت به الضرورة. وشعر فى أله بأنه تعلم فى هذين اليومين ما لم يتعلم فى حياته كلها. أما نفيسة فسكنتت مغلوبة على أمرها. ولم تكن تسمع الاقتراح لأول مرج فقد اقنعتها أمها بضرورته ووجاهته معا. وكانت الخياطة هوايتها وملهاتها، فلم يبق إلا أن توطن النفس لقبول الأجر. لهذا كله تضاعف حزنها على أبيها الذى لم تعد بعده شيئا. ثم قطع حسن الصمت قائلا بلهجة تنم عن الحسرة:

ـ من المؤسف حقا أن المرحوم أبى على نفيسة أن تواصل تعليمها فى المدرسة. تصوروا لو كانت أختنا مدرسة الآن!

وحدجوه بغرابة فأدرك أنه تورط فيما يشبه الدعابة وهو لا يدرى. أفلم يكن الأولى به أن يعرف للتعليم قيمته فيواصل حياته المدرسية. . ؟! وقطب مغيظا وقال:

ـ التعليمن ينفع أمثالها ممن لا حيلة لهم. .

-٧-

وفى صـبـاح اليـوم التـالى مـضت الأم إلى وزارة المعـارف مـصطحبـة معـهـا حسن أكبـر الأبناء، ولما علم هناك أنهـا أرملة المرحوم كامل أفندى أظهر كثير من زملائه استعدادهم لأن يكونوا فى خدمتها. وطلبت المرأة صرف المستحق من مرتبه فدلها بعضهم على إجراءات إثبات الوراثة. وسألت عن معاشه فذهب معها أحد الزملاء إلى إدارة المستخطمين. وتبين أن المرحوم خدم الحكومة حوالى الثلاثين عامل فبلغ مرتبه ١٧ جنيها واستحق معاشا قدره خمسة جنيهات لورثته. لم تكن المرأة تتصور هذا، ولا كانت تعلم شيئا عن نصيب الحكومة فى معاش المتوفى. ولكن الذى أفزعها حقا هو ما قيل عن الإجراءات الطويلة التى تسبق صرف المعاش، والتى تستغرق أشهرا طوالا. هالها الأمر فلم تملك أن قالت:

ـ وكيف يتيسر لنا الانتظار طوال فترة الانتظار؟

وقال حسن مسوغا قلق أمه:

ـ نحن لا نملك إلا هذا المعاش المنتظر؟

وندم حسن على قوله عقب إلقاء مباشرة لأنه بدا غريبا من شخص فى مثل طوله ورجولته، ولكن الموظف قال دون أن يلقى بالالا إلى هذا:

ـ أعدك يا سيدتى بألا نضيع دقيقة واحدة بلا عمل. أما

إجراءات وزارة المالية فلا حيلة لنا فيها . .

ما جدوى هذا الكالم الطيب؟ . ولكن أية فائدة

تنتظرها من التذمر والشكوى؟! . وغادرا الوزارة فى شبه ظلام من القلق واليأس . وهتفت المرأة :

ـ كيف نلقى الحياة هذه الأشهر؟! . وكيف نعيش بخمس جنيهات بعد ذلك؟! .

وخفض الشاب بصره فى وجوم وضيق . ولاح لعينى المرأة المكدودتين بصيص من نور فقالت :

ـ سأزور أحمد بك يسرى . إنه مفتش عظيم ناقذ الكلمة ، وكان صديقا عزيزا بأبيك . .

فقال حسن بأملءات الحكومة .

فنظرت إليه باهتمام وقالت :

ـ لا تضيع وقتك معى . لعلكم تدرك حالنا على حقيقتها فاذهب وابحث لك عن عمل مهما كلفك الأمر . .

وعادت إلى شبرا بمفردها ، ولبثت فى البيت حتى العصر ثم قصدت شارع طاهر أو حى الأعيان كما يسمونه . وكان يقع شمال عطفة نصر الله بثلاث محطات ، متفرعا من الطريق العام . تقوم على جانبيه الڤيلات الأنيقة والعمارات الحديثة ، واسترشدت ببعض السابلة حتى استدلت على ڤيلا البك . وكانت بناء جميلا مكونا من دورين تحيط به حديق مونقة . وذكرت للبواب صفتها

«حرم المرحوم كامل أفندى على» فعاد إليها مسرعا وقادها رى بهو استقبال فاخر موصل بڤراندا كبيرة، ثم أخبرها أن البك قادم بعد ارتداء ملابسه. وخيل إليها أن فترة الانتظار قد طالت، ولكنها لبثت بمكانها دون أن ترفع النقاب الأسود عن وجهها، وقد شغلت بأفكارها المضطربة عن رؤية المنظر النفيس الذى يكتنفها. بيد أنها كانت كبيرة الرجاء فى هذا الصديق العظيم. طالما ذكره المرحوم أمامها بالحب والفخار، وطالما لمست بنفسها أنعم هذه الصداقة فى أقفاص العنب والمانجو تهدى إليهم فى المواسم، وكان المرحوم يقضى أكثر سهراته فى هذه الڤيلا. وربما فى هذا الموضع منها حيث تجلس الآن وقد ألقت على ماحولها نظرة حزينة ـ يلعب بأوتار عوده، ويسمر هزيعا طويلا من الليل، فليس بعيدا أن تغادر هذه الڤيلا مجبورة الخاطر. وإنها لمغرقة فى أفكارها إذا فتح الباب الداخلى للبهرت وجاء البك بجسمه الطويل العريض، وشاربه المفتول بعناية بالغة، فقامت المرأة فى أدب، وسلم عليها البك وهو يقول برقة:

ـ تفضلى يا ست بالجلوس. شرفتنا، روحمة لله على زوجك. كان صديقا عزيزا أحزننى فقده، وسوف سحزننى طوال العمر..

فاستبشرت المرأة خيرا بهذا اللقاء، وشكرت له عطفه. وراح البك يحدثها عن الفقيد حتى اغرورقت عيناها بالدموع. وزادها الموقف استفاضة فلم تحاول منعها مدفوعة برغبة غريزية فى استثارة عطفه. ثم ساد الصمت حينا فأدركت رغم حزنها

واضطربها أن شارب البك وسوالفه مصبوغة. وأنه يغالى فى العناية بمظهره. إلى ما تطيب به من روائح زكية عميقة الأثر. ولما تكرم بسؤالها عن طلبتها قالت:

ـ جئت مستشفعة بسعادتك لاستعجال صرف معاش المرحوم. قالوا لى يا سعادة البك إن إجراءات صرفه تستنفد أشهرا.

فافكر الرجل مليا. ثم قال:

ـ لن أدخر وسيلة فى سبيل ذلك. وسأقابل وزير المالية بنفسى.

فأثلج صدرها ارتياحا. وشكرته. ثم ترددت لحظات وقالت:

ـ الحال يا بك تستدعى السرعة، والله المطلع.

فقال الرجل باهتمام:

ـ طبعا، طبعا، إنى فاهم كل شئ. هل أنت فى حاجة إلى مساعدة؟! يا له من سؤال! إنها لا تملك إلا جنيهين هما ما تبقيا من المبلغ الذى وجدته بمحفظة المرحوم، ولن تجد سواهما حتى يصرف لها ما يستحق من مرتبه حتى تاريخ الوفاة. ولكن كيف تفصح له عن هذه الحقيقة؟ لم تتعرض لمثل هذا الموقف من قبل، وإنه لموقف يستوجب أن تألفه، وعقل الحياء لسانها فسكنت قليلا ثم قال بصوت منخفض:

ـ أحمد الله على الستر. بوسعى أن أنتظر قليلا..

وارتاح البك للجواب. لقد انزلق إلى السؤال متأثرا بالحياء والذوق. ولم يكن ارتياحه لبخل مركب فى طبعه، ولا لأنه يكر

أن يمد يد المساعدة إلى أرملة صديقه، ولكن لأنه كان على ثرائه لا يكاد يبقى على شئ لكثرة نفقاته على نفسه وأفراد أسرتها. كان يضايقه أن يأخذ بيد هذه الأسرة حتى تبلغ بر السلامة. ولكنه كان على استعداد للبذلك لو سألته لمرأة إياه. وقد غاب عن المرأة أن زوجها لم يكن صديقا للبك بالمعنى الذى يفهمه البك من الصداقة. ولعله كان صديقا من أصدقاء الدرجة الثالثة. كان يحبه ويقربه ويود سمره وفنه دون أن يعده ندا له، أو صديقا كسائر البكوات والباشوات. ولكن نيته صدقت على السعى لخدمة هذه المرأة حتى يصرف لها المعاش. إكراما لذكرى الرجل، وتفاديا من التورط فى مساعدتها، ونهضت المرأة مستأذنة فى الانصراف فودعها بالاحترام. ولما خلصت إلى الطريق تنهدت فى أمل، ولكنها قالت لنفسها فى شبه ندم «لو أوتيت قدرا من الشجاعة لما ضيعت على نفسى معونة أنا فى أمس الحاجة إليها. .»

ـ ٨ ـ

وخلا حسين وحسنين لنفسيهما أول مرة بعد الوفاة. كانت مفيسة فى اللمطبخ والأم فى وزارة المعارف سعيا وراء همومها الجديد، وحسن لا يعلم بمكانه إلا الله، وكان حسين متربعا على فراشه، والآخر جالسا إلى مكتب المذاكرة بركن الحجرة يرعش بين أصابعه قلما فى نرفزةج ويقول:

ـ يبدو أن الحياة لم تعد تطاق. .

وانتظر أن يتكلم حسين، ولكنه تجاهل ملاحظته فرفع إليه بصره فى حنق. كان حسنين آخر عنقود هذه الأسرة فلم يكن غريبا أن يبحث لمشكلاته عن حلول عند الآخرين. وضاق صدره بصمت أخيه فسأله:

ـ ما رأيك؟.

فسأله حسين متجاهلا:

ـ فيمه؟

ـ فيما قالت! أتحسب حقا أن حالنا بهذا السوء؟

فهز منكبيه قائلا:

ـ ولماذا تكذبنا؟

فتألقت عينا الفتى ببريق أمل وقال:

ـ كى تكسر من حدتنا. كى نخاف ونتئذ. وليس هذا عجيبا فالشدة مركبة فى طبعها، ولولا المرحوم والدنا ما عرفنا المرح!

فقال حسين بحزن:

ـ ليتنا ما عرفناه قط!

ـ ماذا تقول؟

ـ أقول ليتنا ما عرفنا التدليل أبدا، إذن لهانت الحياة الجديد المقضى علينا بها!

فقال حسنين وقد ساوره الخوف:

ـ إذن فأنت تصدق ما قالت ! . أحقا لم يترك والدنا شيئا؟ ألا يسد المعغاش نفقاتنا؟

فتنهد حسين قائلا :

ـ إنى مؤمن بكل كلمة نطقت بها . هذه هى الحقيقة .

فتساءل حسنينى فى جزع :

ـ كيف نطيق هذه الحياة؟

فارتسمت على شفتى حسين ابتسامة حزينة . كان يشارك أخاه حزنه وقلقه ولكنه رأى من الحكمة أن يقف منه موقف المعارضة فقال :

ـ كماى طيقها الكثيرون . أم حسبت الناس جميعا يحظون بأب كريم ورزق موفور؟! . ومع ذلك فهم يعيشون ولا ينتحرون . فامتلأ حسنين غيظا وهو يحدق فى وجه أخيه وهتف به :

ـ لشد ما يخنقنى برودك . .

فقال حسين مبتسما :

ـ لو جاريتك فى عواطفك لركبك اليأس وأجهشت باكيا .

فقال حسنين بسخط :

ـ إن من يستسلم للأقدار يشجعها على التمادى فى طغيانها !

فابتسم ال]ر ابتسامة ساخرة وقال فى شبه دعابة :

ـ هلم نثر عليها . . دعنا نهتف لنسقط الأقدار كما هتفنا ليسقط هور .

ـ ألم تفقدنا ليسقط هور ؟ !

ـ هيهات أن تفيدنا الأخرى .

وقطب حسنين فى كدر وتساءل :

ـ من لنا الآن؟

فابتسم حسين ابتسامة عريضة فرطحت أنفه الذى بدا فى تلك اللحظة شبيها بأنف أمه الغليظ . وقال باقتضاب :

ـ الله . .

وزاد الجواب من حنقة ! إنه لايشك فى هذا ولكنه لا يقنع به . الله للجميع حقا ولكن كم فى الدنيا من جائع ومصاب ! . لم يتنكر يوما لعقيدته ولكنه يتلهف فى خوفع على سبيل محسوس للطمأنينة . وتوهم أن أخاه يحرجه ليتخلص منه فتشبث بعناده وقال :

ـ لقد شاء أن يأخذ والدنا ويتركنا بلا معين !

فقال حسين وكأنه يمعن فى أثارته :

ـ هو المعين . .

فانفجر حسنين قائلا :

ـ إ هدوءك الكاذب لا يجوز على . . أزنت مطمئن حقا؟

فـأصغى حـسـين إليـه فى امـتعـاض وألـم، ثـم قـال ولعله كـان يدارى عواطفه :

ـ المؤمن لا تخونه طمأنينته . .

ـ إنى مؤمن وقلق معا!

فقال حسين فى غير إيمان بما يقول :

ـ هذا من ضعف الإيمان .

فقال حسنين بحنق :

ـ أوه، ليكن . . إنى أعرف تلاميذ يجاهرون بالشك!

ـ أعلم هذا .

ـ هم أذكياء ومطلعون .

ـ أتحب أن تفعل مثلهم؟

فقال فى خوف :

ـ كلا . لست من هواة الاطلاع . أنت نفسك تقرأ كثيرا!

فقال حسين مبتسما :

ـ هذا حق ولكنى لم أنتـزع الله من قلبى . والحق أننا نغـالى فى تحـميل الله مسـئوليـة مـصائبنا الكثيـرة . ألا ترى أن الله إذا كـان مسئولا عن موت والدنا فليس مسئولا بحال عن قلة المعاش الذى تركه . .

وشعر حسنين أن تطور الحديث نأى به عن مخاوفه الحقيقية فقال بضيق :

ـ دعنا من هذا وخبرنى كيف نعيش بلا مصروف؟ أى بلا سينما ولا كرة . والأدهى من هذا كله أنى كنت شارعا فى تعلم الملاكمة!

فقطب حسين قائلا :

ـ تحام ما يؤلم أمنا ، إذا لم يكن فى وسعنا أن نساعدها فلا أقل من أن نريحها من منغصات لا داعى لها . واذكر أنها وحيدة فلا أعمام لنا ولا أخوال!

ـ لا أعمام ولا أخوال! كان هذا يهون لو لم تصبح أختنا خياطة! . رباه ما عسى أن يقول الناس عنا؟!

وضاق صدر حسين ، وغلبه الحزن ، وقعت لفظة «خياطة» من نفسه موقعا مؤلما ، فقال بغضب :

ـ نستطيع أن نعيش دون مبالاة بما يقول الناس .

وأراد أن يقطع الحديث فنهض قائما وغادر الغرفة .

ـ ٩ ـ

شعرا بحرج وهما يدخلان فناء المدرسة لأول مرة بعد الوفاة . لن يستطيعا مواصلة الحياة الأولى وسيتغير كل شئ ، هيهات أن تخفى خافية على أعين التلاميذ . وكان يعانيان من هذا الشعور مؤلما وإن تباينت درجة ألمهما . ولم يكن قد علم بالوفاة إلا قليل

فسرعان ما ذاع الخبر بين الأصدقاء وأقبلوا عليهما معزين. وقال أحدهم محذرا:

ـ يجمل بذويكما أن يحسنا أختيار الوصى عليكما، فإنى لم أدرك حقيقة الفاجعة بموت أبى حتى ابتليت بوصاية عمى!

الوصى! وتظاهر حسين بالإصغاء إلى نفر يتحدثون عن المظاهرات الزخيرة والمساعى المبذولة لضم الصفوف، ولكنه سمع حسنين يجيب صاحبه قائلا:

ـ نحن مطمئنون إلى الوصى كل الاطمئنان..

فقال محدثه:

ـ إنى أغبطكما على حظكما، بيد أن الأمر يتوقف على نوع التركة، فإذا كانت أراضى زراعية تيسرت سبل الخداع، وإذا كانت عقارا ضاقت السبل على الوصى بعض الشئ.. أو هذا ما تقول أمى..

فقال حسنين بهدوء:

ـ مكن حسن الحظ أن تركتنا عقار!

وأصغى إليه حسنين فى غيظ، لم يحنقه الكذب فحسب ولكنه أشفق من عواقبه. «كبف نواجه الحال الجديدة إذا ظن بنا الإخوان اليسار؟ ماذا نفعل وماذا نقول؟.. إنه يكذب بلا مبالاة. سحقا له!» وصوب عينيه نحو أخيه محذرا فتحاشاه الفتى فى تذمر. ثم تساءل تلميذ كيف مات والدهما فأجاب حسنين فى تأثر قائلا:

ـ قيل لنا إنه مات فجأة . ومن عجب أنه لما رآنى خارجا إلى المدرسة صباح اليوم الذى توفى فيه ، وقبل أن يتوفى بساعة واحدة ، وضع يده على منكبى ورنا إلى فى حنان وقال لى بلا داع ظاهر «مع السلامة . . مع السلامة!» . .

فمن كان يدرينى أنه يودعنى!؟

لم يكن شئ من هذا قد حصل ، ولا يدرى كيف قاله ، والأعجب من هذا كله أنه قاله بتأثر صادق كما لو كان وقع حقا ، وقد نطق به ارتجالا مدفوعا برغبة غامضة فى تبجيل والده ، وعجب حسين لوص٢فه ثم دهش لتأثره فكاد يغلبه الابتسام ، ونحى وجهه جانبا فرأى عن بعد قريب رئيس فرقة كرة القدم فأراد أن ينفس عن ضيقه بمواجهة الحقائق فمضى إليه وحياه ثم قال :

ـ أرجو أن تعفينى وأخى من الاشتراك فى نادى شبرا . .

ولاحت الدهشة فى وجه الرئيس ، وأزعجة الطلب خاصة فيما يتعلق بحسنين ـ جناح الفريق الأيمن ـ فقال معترضا

ـ لعل أمرا ضايقكما!

فقال حسين بتأثر :

ـ توفى والدنا!

فوجم الرذس مليا ، ثم عزاه برقة ، وصمت لحظات ثم قال :

ألا ترى أن هذا لا يدعو إلى حرمانت النادى من عضوين بارعين مثلكما؟

فقال حسين بلهجة خاطفة :

ـ إن الحداد يقضى بهذا!

فقال الفتى بإشفاق :

ـ إن الحداد لا يتعارض مع الرياضة!

فقال حسن باشًا :

ـ إن ظروفنا تقضى بهذا . إنى آسف!

ثم حياه مرة أخرى وغادره متحاميا النظر إلى عينيه ، وانضم إلى زصدقائه . ووجدهم يتحدثون فى السياسة . وكان أحدهم يقول :

رحمة الله على شهداء الآداب والزراعة ودار العلوم!

فقال آخر :

ـ لابد من التضحية فالدم هو اللغة الوحيدة التى يفهمها الإنجليز . .

فقال ثالث :

ـ لم يضع الدم الطاهر عبثا ، ألم تسمعوا عن الدعوة إلى الإتحاد؟

ـ وهذه التيمس تلمح إلى المفاوضة . .

ودق الجرس فاتجهوا إلى الفصول وهم يتناقشون . .

قطعا فناء البيت فى صمت حاملين كتبهما، ثم قال حسنين وهما يرتقيان السلم :

ـ عما قليل يبدأ فريق نادى شبرا فى التمرين استعدادا للمباراة القادمة !

فلاذ حسين بالصمت، وجعل يتخيل الملعب واللاعبين، فكأنه يسمع الرئيس وهو ينبئ الآخرين بانفصالهما «لظروف الأسرة الجديد!» لا لعب ولا مسرة ولا رحمة من شكوى حسنين المتواصلة، وطقا الباب ثم دخلا، وتسمرت أقدامهما وراء الباب لمنظر غريب لم يتوقعاه. رأيا أثاث البيت مكوما فى الصالة فى اضطراب شامل رصت المقاعد فوق الكنبات ولفت الأبسطة وفكت الدوالى، ولاحت الزم ونفيسة يعلوها التراب ويتصببان عرقا على لطافة الجو. وهتف حسنين :

ـ ماذا حصل؟

فقالت الأم :

ـ سنترك الشقة .

ـ إلى أين؟!

ـ إلى الدور التحتانى. سنتبادل السكن مع صاحبة البيت .

شقة أرضية بمستوى الفناء الترب. لا شرفة لها، ونوافذها

مطلة على عطفة جانبية تكاد تبدو منها رءوس المارة، وطبعا محرومة من الشمس والهواء، وتساءل حجسنين فى امتعاض ولو أنه كان يعرف الجواب مقدما:

ـ لماذا؟

فقالت الأم بصوت واضح:

ـ لأن إيجارها ١٥٠ قرشا!

فقال الشاب متذمرا:

ـ فرق الإيجار أقل من ٥٠ قرشا لا يتناسب مع الفرق بين الشقتين!

فسألته الأم ساخطة:

ـ هل تتعهد بدفع الفرق التافه؟

ـ لماذا رضينا إذن بأن تشتغل نفيسة خايطة؟

فالتهمته الأم بنظرة من نار وصاحت به:

ـ كى نأكل، كيلا تموتوا جوعا!

وحافظ حسين على طلاقة وجهه أن يفتضح امتعاضة وسأل أمه بلهجة لا أثر فيها للاعتراض:

ـ متى تم هذا يا أماه؟

فقال المرأة وهى تمسح جبينها بكم ثوبها الأسود:

ـ عرضت الأمر على صاحبة البيت غير مخفية شيئا من حالناو، فأظهرت روحا طيبة ووافقت بلا تردد:

فقال حسنين فى استياء:

ـ لو كانت ذات روح طيبة حقا لنزلت لنا عن فرق الإيجار مع إبقائنا فى شقتنا!

فقالت الأم فى حدة:

ـ للناس أعمال زخرى غير العناية برفاهيتك!

ـ وكيف ننام ليلتنا؟

فقالت نفيسة بصوت كسير دلف على أنها لم تفق بعد من صدمة الوفاة:

ـ سننام فى الشقة الجديدة.

وخرج فى تلك اللحظة حسن من حجرة المرحوم حاملا بين يديه المشجب وهى آخر ما بقى من الأثاث فى الحجرات وقال بسرعة:

ـ كفاكم نقارا وهلموا نرفع الأثاث إلى الدور التحتانى فليس بيننا وبين الليل إلا ساعتان..

وأراد أن يضرب لهم مثلا عمليا فرفع كنبة من جانب وخاطب حسين قائلا:

ـ ارفع..

وفتحت نفيسة الباب على مصراعيه وسار الشقيقان بحملهما الثقيل، وجعل حسين يتساءل وهو يهبط السلم بحذر: ترى هل يراهما أحد من أسرة فريد أفندى محمد جارهم الكريم بالدور الثالث؟! «ليس الفراق شر ما فى الموت. إن الفرق حزن المطمئن. متاعبنا تتلاحق بحيث لا تدع لنا وقتا للتفكير فى الحزن. لشد ما تتغير ونتدهور، ولكى ينبغى بجزعنا شقاء أمنا. سأخاطب حسنين بحزم أكثر!» ثم تبعتهما الأم والأخت يحملان ما يقدران على حمله من قطع الأثاث، ولم يستطع حسنين أن يقف متفرجا فانضم للعاملين. ومازالت الأسرة فى نزول وصعود والأثاث يتحول من فوق لتحت، وكانت صاحبة البيت قد أخلت الشقة وجمع أثاثها فى الفناء إلى جانب الحمالين الذين وقفوا ينتظرون دورهم فى العمل. وكانت الأس ـ الصامت منهم والساخط ـ سواء فى الحزن والألم ولم يكن وجه الأم مما تسهل قراءته، أما نفيسة فابتلت عيناها بالدموع، واشتغل حسن بهمة كأنه يتملق بجهده أمه فلا تلحف فى تأنيبه على تعطله، وكان أقل الأخوة تأثرا للتغير الذى قلب الأسرة كما ينبغى لرجل ذاق التشريد وألف التسكع. وهمس حسنين فى أذن حسين وهو يلهث من الجهد:

ـ ألا ترى أن خسارتنا بموت أبينا لا تعوض أبدا؟!

وانسابت من عينيه دمعتان.

غادر حسن البيت مبكرا، عقب خروج شقيقيه للمدرسة، لم يكن ثمة داع ضرورى لهذا الخروج المبكر، ولكنه أراد أن يتفادى من الاصطدام بوالدته أن يصحبها بنقار هى فى غنى بما تكابد من تغير الزكمن وتجهم الحظ. انطلق من عطفة نصر الله بلا غاية ولا أمل. سابحث عن عمل! لا تفتأ تردد على مسمعى هذه الجملة. أين يوجد هذا العمل؟ صبى بقال؟. هذا معناه الاسعاف ثم البوليس.» ولكنه لم يكن يائسا للحد الذى توجبه حاله. كان كبير الثقة بنفسه، وكان فى طبعه تفاؤل لا يدرى من أين يأتيه. ولكنه لم يستطع أن يتجاهل دقة موقفه وراح يخاطب نفسه قائلا: «يا أبا على، مات الوالد رحمة الله ففقدت الركن الذى كنت تأوى إليه، حقا كنت تلتقط رزقك بالشجار والنقار، وتتحمل فى سبيله السب واللعن، ولكن كان على أى حخال رزقا مضمونا. هذه البدلة التى تجعل منك أفنديا لا بأس به من نقوده رحمة الله عليه. أجل أبى أن بيتاعها لك بادئ الأمر ولكنك هددته بأن تمشى فى الطريق باللباس والفانلة وأن تقتحم عليه مجلسه بقصر أحمد بك يسرى شبه عار، فأذعن على مضض وكلف الخياط بأن يفصلها لك. الآن لو مشيت عاريا بلا لباس ولا فانلة فلن تجد من يسأل عن صحتك إلا الشرطى». ؛انت البدلة حسنة وإن لم تخل من بقع باهتة عند ثنية الركبة. وكان يربط رقبته ببايون فبدا القميص فى حال لا يحسد عليه. وكان شعره أعجب منه رأسا مستقلا فوق

الرأس الأصلى، أما وجهه فكان حسن كشقيقه إلى جسم طويل مفتول العضلات عريض العظام. سار متفكرا فيما خاطب به نفسه. ثم واتته ثقته بنفسه فجأة فقال «يا سيدى لا تسمحج للهم بأن يركبك فما يجوز أن يركب إلا البهائم من عباد الله. سوف تعيش طويلا وتلقى الحياة بخيرها وشرها. لم أسمع عن إنسان مات جوعا. الأغذية تسد الطريق سدا. ولاست طماعا فما تريد إلا للقمة والسترة وكم كأسا من الكونياك، وكم نفسا من الحشيش، كم امرأة من النساء، وكل أولئك متوفرة بكثرة، أكثر من الهم على القلب، توكل على الله ولا تحمل هما، ولم يكن خلو الجيب فقد أشرف على جنازة أبيه، وخرج منها بأربعين قرشا لم يعلم بها أحد وقد تساءل ألم يكن الأخلق به أن يعطيها لوالدته؟ «كلا لو نزلت عنها ما زفادت أمى منها نفعا مذكورا، ولكن ضياعها يضرنى ضررا لا شك فيه، لا زدرى متى يتاح لى الحصول على مثلها!» وأخذت قهوة الجمال تلوح لعينه الحادتين فحث خطاه حتى انتهى إليها. هى قهوة صغيرة لم تؤت من ميزة إلا وجودها على الطريق العام. ولم يوجد بها فى هذه الساعة المبكرة إلا زبونا جلسا إلى إلى مائدة على الطوار يتشمسان ويحتسيان القهوة، على حين قبع فى ركن بالداخل شبان ثلاثة يدل مظهرهم ونظرات أعينهم الحائرة على الفراغ واليأس، فلم يكن عجيبا أن يقصدهم الشابر وينضم إلى مجلسهم. وما لبث أن طلب أحدهم الورق فتهيئوا للعب الكومى. و. كان كل منهم يمنى نفسه بأن يربح رزق يومه ـ خمسة قروش فوق الكفاية ـ من رفقائه. بيد أن حسن كثيرا ما يكون الصائد لمهارته من ناحية ولخفة

يده وعـينه من ناحـيـة أخـرى . لـهـذا قـال أحـدهـم قـبل البـدء فى اللعب :

ـ لا نريد غشا .

فقال حسن :

ـ طبعا .

فقال الشاب :

ـ فلنقرأ الفاتحة . .

وقرأوا الفاتحة جميعا بصوت مسموع ، ولعل حسن تعلم حفظها حول هذه المائدة ، ثم لعبوا مقدار ساعة فربح أحدهم دورا ، وربح حسن دورين . كان صافى ربحه أربعة قروش ونصف بعد خصم نصف قرش ثمن فنجان القهوة ، واقترح بعضهم أن يمدوا وقت اللعب ، ولكن دخل القهوة شاب ما إن رآه حسم حتى نهض قائما ، وأقبل نحوه فى احترام وسرور وهو يقول :

ـ صباح الخير يا أستاذ على صبرى .

فمد له القادم يده فى حركة تشى بشعوره بقدر ذاته ، وقال :

ـ صباح الخير . .

وجلسا إلى مائدة متقابلين ، واجتاحت نفس حسن موجة كرم عاتية فنادى النادل وطلب للأستاذ على صبرى قهوة ، ثم قال الأستاذ للنادل قبل أن يذهب :

ـ ونار جيلة . .

وغاص فى قلب حسن فى صدره أن يلزم بدفع ثمن نار جيلة أيضا فيضيع عليه ما ربح باللعب والحظ واليد والعين . ولكنه سرعان ما تناسى قلقه ليفرغ إلى استطلاع وجه الأستاذ . وكان على صبرى فى منتصف عقده الثالث، متوسط القامة نحيل العود، صغير القسمات، أما شعره فزشبه ما يكون بشعر حسن، إلى سوالف تزحف حتى منتصف خذه، وكان مظهره بوجه عام يدل على سوء الحال ولكنه يغطيه بنفخة كاذبة وغرور غير محدود . قال حسن بأسف وهو يستطلع وجهه :

ـ لم نسمع صوتك من زمان!

وكان زذاع مرات من المحطات الأهلية وبدا وكأن الحظ يبتسم له، فلما ألغيت المحطات الأهلية وأنشئت محطة الإذاعة الرسمية حيل بينه وبين إحياء الحفلات، وضاعت مساعيه وراء هذا الأمل هباء، وكان حسن أحد أفراد تخته المعطل، وطبيعى أن العمل لم يكن يدر عليه أكثر من قروش فى الحفلة، ولكنه كان يحبه ويؤثره على العمل الجدى الذى لم يصادف فيه توفيقا على مشقته و«حقارته» وقال الأستاذ :

ـ سأبدأ نشاطا جديدا عما قريب .

فخفق قلب حسن وقال برجاء :

ـ نحن ررجالك، وفى الخدمة دائما . .

فهز الأستاذ رأسخ فى رضى لأنه لم يكن يشعر بالعزة إلا إذا

خاطبه أحد أفراد تخته المتسكعين، خصوصا حسن، ذلك الشرس الجبار، و الذى ينقلب بين يديه وديعا متملقا، ثم قال:

ـ طبعا. إنك تردد ترديدا حسنا، وصوتك لا بأس به.

فانطلقت أسارير حسن فى بشر وقال:

ـ ولقد حفظت كثير ا من الطقاطيق..

ـ مثل ماذا؟!

ـ اللى حبك، ظالمنى لى، لما انكويت بالنار.

فهز الأستاذ من. كبيه استهانة وقال:

ـ إن محك الفن الدور والليالى. ماذا يسمع الآن فى الراديو؟. لا شئ. هذا زعيق فارغ وليس بغناء. ولو كانت المحطة تراعى وجه الفن وحده لكنت المذيع الأول بعد أم كلثوم وعبد الوهاب. وعبد الوهاب نفسه، يخاف كثيرا أن تخونه حنجرته فتراه يتحامى النفس الطويل، ويشطره أجزاء قصيرة متواريا وراء ما يسميه بالتجديد، ثم يغطى ضعفه بضجيج الآلات. إليك كيف يغنى «ياليل» فى الحفلة الأخيرة..

وتنحنح ثم راح يغنى ياليل مقلدا عبد الوهاب. وجاء النادل بالنار جيلة والقهوة وهو يغنى فتناول الخرطوم دون أن يمسك عن الغناء حتى انتهى. وحينذاك هتف رفاق حسن «الله.. الله» فأخذ نفست من النار جيلة دون أن يلتفت إليهم، ثم قال لحسن همسا:

ـ هذا إعجاب بالصوت لا بالفن. اسمع هذه الليالى فى نفس واحد كما ينبغى أن تغنى..

وأنشد بصوت ملأ القهوة الصغيرة حتى رفع صاحب القهوة رأسه عن صندوق الماركات وأسارير وجهه تراوح بين الابتسام والاعتراض. وانتهى الأستاذ على صبرى، وعاد إلى النار جيلة وفى نيته أن يشكو فى هذه المرة للرفاق استحسانهم إذا أبدوه، ولكن ساد الصمت فلم يسمع إلا قرقرة الماء فى قنينة النار جيلة، وقطب الأستاذ وقال فى ثقة:

ـ هذه أصول الفن. .

فقال حسن بحماس:

ـ لا شك فى هذا. .

فقال بلهجة الناصح:

ـ مرن صوتك، لا تكف عن التمرين. أكثر من الليالى. ولا تن عن مص السكر النبات. .

ـ يا سلام

مفيد جدا ويا حبذا لو استيقظت حين الفجر وأذنت للصلاة فهو خير مران للحنجرة، وهو ما كان يفعله سلامه حجازى. .

فضحك حسن وقال:

ـ ولكنى أنام عادة قبيل الفجر. .

ـ أذن قبل النوم.

ـ فى مسجد؟!

ـ المهم الأذان نفسه فى هذه الساعة المبكرة . فى مسجد، فى حانة، كيفما اتفق

ـ وإذا كان الإنسان من غير مؤاخذة سكران أو مسطولا؟

ـ يكون أفضل، فما تستطيعه وأنت غائب عن وعيك أضعاف ما تستطيعه وأنت صاح . .

ـ ينبغى أن نتقابل كثيرا حتى يفتح الله علينا . . ثم التفت صوب الرفاق الثلاثة وسألهم :

ـ ماذا كنتم تفعلون؟

ـ كنا نلعب الكومى . .

فقال الأستاذ على صبرى باهتمام :

ـ هلم نجرب حظنا . .

ونهض الرفاق وأقبلوا نحوهما بلا تردد، ثم تحلقوا المائدة والطمع يلعب بقلوبهم جميعا، بيد أن حسن كان قلقا مشفقا من مغبة هذا اللعب . «ما عسى أن أصنع مع ابن القديمة هذا؟ إذا كسبت أغضبته وإذا خسرت ضاع اليوم هدرا؟!» .

ـ ١٢ ـ

ـ لا أدفع مليما واحدا أكثر من الثلاث الجنيهات .

قالها تاجر الزثاث وهو يلقى نظرة على فراش المرحوم، ولم

تعد تجدى مساومة الأم. وكانت قد أجمعت على بيع الفراش ولوازمه لما يثيره وجوده من الأحزان، ولأنها باتت فى مسيس الحاجة إلى النقود. وكانت ترجو له ثمنا أكثر من هذا لعله يسد بعض عوزها الملح إلى النقود، ولكنها لم تجد بدا من الإذعان فقالت للتاجر:

ـ غلبتنا سامحك الله ولكننى مضطرة للقبول..

ودفع الرجل إليها بالجنيهات الثلاثة وهو يشهد الله أنه المغلوب، ثم أمر تابعين بحمل الفراش.

واجتمعت الأسرة فى الصالة تلقى نظرة الوداع على فراش فقيدها المحبوب. وتمثل الراحل لهم فكأنهم يرونه رؤية العين، وغلب الحزن نفيسة فأجهشت فى البكاء وأطبقت الأم شفتيها كاتمة آلامها. كانت تحرم على نفسها البكاء أمام أبنائها أن تعاودهم حدة الحزن. لم يكن لهم من أحد يعتمد عليه سواها فوجب أن تظهر بمظهر الرجولة. لو وجد هذا الشخص للاذت بالدموع مسائر النساء ولكن لم يكن لها محيد عن التصبر والتجلد. وفضلا عن هذا كله فلم تواتها فرصة للتنفيس عن حزنها بما جبهها من هموم العيش وأثقاله، ووجدت نفسها فى الغالب مضطرة إلى تناسى أحزان القلب لتناضل ما يتهدد أسرتها من الضراء. «يحز فى نفسى ألا أجد فراغا للحزن عليك يا سيدى وفقيدى، ولكن ما الحيلة؟. حتى الحزن نفسه محرم على أمثالنا من الفقراء». ولم يكن حسنين يتصور زن يفرطوا فى مخلفات أبيه ولكنه لم يفكر فى الاعتراض. والواقع أن حال الأسرة لم تعد تخفى على أحد.

ومضى التاجر بالفراش وأغلق الباب فساد الوجوم حينا، وأرادت الأم أن تبدد سحابة الحزن التى أظلتهم فقالت مخاطبة حسين وحسنين:

ـ هيا إلى حجرتكما للمذاكرة . .

وقبل أن تبدأ حركة قالت نفيسة بانفعال:

ـ لن أسمح لمخلوق بأن يمس ثياب أبى . .

فقال حسن مؤمنا على قولها:

ـ وما من فائدة ترجى من بيعها . .

وساد الصمت حينا، ثم قال حسن مستدركا وكأنه يواصل حديثه:

ـ وفضلا عن هذا فلن ينقضى وقت طويل حتى تشتد حاجتنا إلى الملابس!

فتساءلت نفيسة فى ارتياع:

ـ أيمكن أن تستعملوا ملابس أبى؟!

ولم يجرؤ أحد على الاعتراض، ولكن الرقة مست قلب الأم فقالت:

ـ ما فى ذلك من ذنب. وليس فيه ما يسئ رلى المرحوم، بل لعله مما يطيب ثراه. ولكنى سأحتفظ بها بنفسى حتى تمس الحاجة رليها حقا . .

وتشجع حسن بقولها فقال فى ارتياح :

ـ نطقت عن حكمة . وإنى أذكرك بأنى الوحيد الذى لا أكاد أختلف طولا أو عرضا عن المرحوم أبى .

وتناسى الشقيقان الحزن الذى ران على صدريهما فقال حسنين محتجا :

ـ إنى وإن كنت أطول منك قليـلا إلا إنه يمكن مد ثنية البنطلون !

وقال حسين بلهجة ذات معنى :

ـ أو ثنيها مرة أخرى . .

فقالت الأم فى ضيق :

ـ لا داعى للنزاع . توجد أكثر من بدلة فى حال لا بأس بها وسأوزعها تبعا للحاجة إليها . .

ثم بلغ المسامه طرق على الباب فقطع عليهم الحديث ، وخفت نفيسة إليها ففتحته ، فدخلت خادم فريد أفندى محمد حاملة سلة مغطاه بغطاء أبيض وضعتها على السفوة وهى تقول :

ـ ستى تسلم عليك يا ستى وتقول إن هذا فطير القرافة .

فحملتها الأم السلام والشكر وذهبت الخادم من حيث أتت . واقترب حسن من السلة وحسر عنها الغطاء فبدت الفطائر بألوانها الوردية وطار عرفها الشهى إلى الأنوف . ولم يكن تهيأ للأسرة طوال الأسبوعين المنصرمين طعام شهى لما أخذت به الأم نفسها

من الحذر والتقتير . ولاحت الرغبة فى أعين الزخوة . ولكن الزم كانت تتهجم لها الخواطر ، والحقيقة أن تلك الأيام لم تكن تظمر لها خيرا ، وحتى خيرها لم يخل من نكد ، وبدا التفكير فى تجاعيد وجهها وهى تقول :

ـ هدية مشكورة ولكن الواجب أن نهدى ما يماثلها عقب العودة من القرافة ، فما العمل ؟ !

وجد الأخوة خيبة ، وأراد حسين أن يخفف عن أمه فقال :

ـ فلنعد الهدية إلى أصحابها شاكرين !

فقالت الأم فى حيرة :

ـ يعد مثل هذا العمل معيبا لا أثر للمودة فيه . .

فقال حسن متحمسا لقول أمه :

ـ بل يعد سلوكا عدائيا . .

وتناول فطيرة ، شمها ثم قال باستهانة :

ـ لا تحملوا هما ، إنما ترد هذه الهدايا فى أوقاتها ، فإذا مات فريد أفندى بعد عمر طويل أهدينا أسرته سلة فطائر ، ولن يعجدنا صنعه وقتئذ بإذن الله . وراح يلتهم الفطيرة . وتبادل الشقيقان نظرة ماد يديهما إلى السلة ، حتى نفيسة سمعت تمطقهم فلم تعد تقاوم . .

ـ ١٣ ـ

جلست نفيسة على الكنبة فى الحجرة التى تنام فيها مع أمها منكبة على ماكينة الخياطة، وقد نثرت على أرض الحجرة قصاصات من الأقمشة. كانت الأم فى المطبخ، والشقيقان فى المدرسة، أما حسن فحيث لا يدرى أحد. وقد باتت الفتاة تضمر لشقيقها الأمبر مر اللوم، فلو أنه وجد لنفسه عملا لما وجدت نفسها فى الوضع الذى هى فيه. لا يؤمن أحد بأنه جاد ـ كما يقول ـ فى البحث عن عمل، ولكنه يغيب النهار ونصف الليل ثم يعود كما خرج صفر اليدين. ولم تعد الأيام تطالعهم إلا بما يسوء، فاليوم اضطرت الأم إلى الاستغناء عن الخادم الصغيرة لتوفر أجرتها فأصبح عليها ـ هى واجبان يوميا ـ أن تبتاع حوائج البيت من الطريق لتسد الفراغ الذى تركته الخادم وأن تعكف سحابة يومها بعد ذلك على ماكينة الخياطة. وقد مهدت لها الأم سبيل العمل بنفسها منذ يومين فقالت لصاحبة البيت حين جاءت بقطعة من القماش لتفصيلها:

ـ هل عندك مانع من مكافأة نفيسة على عملها؟

فقالت المرأة بلا تردد:

ـ أبدا يا ست أمن حسن. هذا حق وعدل، وهيهات أن نوفى ما علينا من دين لست نفيسة.

مازال سمعها يرجع هاتين الجملتين. وما تذكر أنها وجدت

نفسها فى مثل هذا الموقف طوال عمرها. لقد تصاعد الدم إلى وجهها الشاحب فكاد ينضح به، وشعرت بأنها تهوى من عل، وأنها أمست فتاة زخرى. ليس بين الكرامة والضعة إلا كلمة. كانت فتاة محترمة فانقلبت خياطة. وأعجب شئ أنه لم يستجد جديد بالنسبة إلى العمل نفسه، فطالما خاطت ثياب صاحبة البيت. وامرأة فريد أفنديوابنتها وغيرهن من الجيران. فالخياطة هوايتها، ولها فيها من البراعة ما يجعلها قبلة الجيران والصديقات، لشد ما تغير شعورها. أحست بالخزى والهوان والضعة، وتضاعف حزنها على أبيها، فبكته بكاء حارا، وبكت نفسها فيه، مات الفقيد المحبوب فمات بموته أعز ما فيها.

كانت تخيط منقبضة الصدر، لا ضاحكة الثغر ولا مترنمة كعادتها فيما ولى من أيام. وكانت تنتظر حضور صاحبة البيت بين آونة وأخرى لتفصل لها بعض ثياب داخلية بعثت بها إليها هذا الصباح. أجل بعثت بها هذا الصباح فحخسب، عقب حديث أمها بيومين، مما جعلها تظن أنها أرسلتها على سبيل الرحسان! وقد أفضت بأفكارها إلى أمها فانتهرتها قائلة:

ـ لا تسلطى هذه الأوهام على نفسك وإلا خاب مسعانا جميعا.

ولم تكن تجرؤ على معارض أمها إلى ما باتت تكنه لها من الرثاء فى هذه الأيام الأخيرة. «ما أغبانى. هل حسبتها راضية على حالى؟ إنها تكابد حيرة قاتلة وهى أحقنا بالعطف. إن التعاسة تنفذ فى لحمنا كما تنفذ هذه الإبرة قطعة القماش. ما كان

أبى ليسمح بشئ من هذا ولكن أين هو؟ . إن حزنى عليه يتضاعف يوما بعد يوم لا للضر الذى مسنا بعده فحسب ولكن لأن هذا الضر نزل بمن يحبهم ويحب لهم الخير . إنى آلم لألمه . لابد أنه متألم لنا، لشد ما كان يحبنى . كأنه حيدس ما يرثدنى من شقاء . اضحكمى، ما أحب ضحكتك إلى نفسى، هكذا كان يقول لى كلما تعالت ضحكتى الرنانة . وكان يقول لى أيضا الخفة أنفس من الجمال كأنه يعزينى على دمامتى . لله ما ألطفه وما أعذبه، لم يكن مثله أحد فى الرجال . مات . مات . لن أنسى ما حييت إيماءته إلى صدره وهو ملقى على الكنبة : أبى يستغيث ولا مغيث . لتندك الجبال على الأرض . حياة مفجعة لا خير فيها . أبى ميت وأنا خياطة . عما قليل تجئ صاحبة البيت لا ضيفة كما كانت ولكن زبونة . كيف ألقاها؟ بأى عين تنظر إلى؟ . حسبى، حسبى، داخ رأسى» . وسمعت أمها تخاطب شخصا فى الصالة فكفت يدها على الماكينة وأرهفت السمع فقرع أذنيها صوت تاجر الأثاث وهو آخذ فى مساوماته التى لا تنتهى وأمها لتغلب فى مثل هذا الموقف . ولكنها الحاجة القاسية التى تركبها، متى يصرف لنا المعاش؟ لا أدرى، ولا أحمد يسرى يدرى . هيهات أن يكفينا المعاش، خمسة جنيهات؟ ! كارثة . جاء الرجل ليحمل المرآة الكبيرة بحجرة الاستقبال ولما يمض أسبوعان على بيع الفراش العزيز . وسيأتى غدا أو بعد غد حتى يترك الشقة أرضا عارية . لماذا خلقنا زسرى أذلاء للغذاء والكساء والمسكن؟ هذا سر متاعبنا» . وخفت إلى باب الحجرة ففتحته ورأت التاجر ومعاونيه يحملون المرآة الطويلة إلى الخارج وقد فتح باب حجرة الاستقبال على

مصراعيه ووقفت أمها على عتبتها . وكان الرجل الذى يحمل مؤخرة المرآة قصيرا فحملت المرآة فى وضع مائل ورأت سطحه ينعكس عليه ركن سقف الصالة متأرجحا بحزكة الرجلين كأنما سرى بأوصال البيت زلزال . وذكرت وهى لا تدرى نعش أبيها . واشتد انقباض صدرها وهى تلقى نظرة الوداع على المرآة التى عاشرتها منذ رأت النور . وعادت إلى مجلسها . «ينبغى أن تكون المرآة آخر ما زحزن عليه . لن تعكس لى وجها أسر به . الخفة أنفس من الجمال! هذا قولك يا أبى وحدك ولولاى ما قلته أبدا . ولا جمال ولا مال ولا أب . كان يوجد قلبان يساورهما القلق على مستقبلى ، مات أحدهما ، وشغلت الهموم الآخر . وحيدة . وحيدة ، وحيدة فى يأسى وألمى ، ثلاثة وعشرون عاما! ما أبشع هذا . لم يأت الزوج بالأمس والدنيا دنيا فكيف يأتى اليوم أو غدا؟! وهبه جاء راضيا بالزواج من خياطة فمن عسى أن يقوم بنفقات الزواج؟ . لماذا أفكر فى هذا؟ لا فائدة . سوف أظل هكذا ما حييت» .

ودق الباب ، ثم جاءت صاحبة البيت متهللة كعادتها ، واحتضنتها وقبلتها . ثم جلستا جنبا إلى جنب وتحدثت المرأة برقة ومودة ، ولعلها حرصت على الرقة والمودة أكثر من ذى قبل . وتظاهرت نفيسة بالرضا والارتياح تدارى بهما ارتباكها وخجلها . ولكن المؤكد أن مبالغة المرأة فى ظهار مودتها آلمها وآذاها وضاعف من ارتباكها وخجلها . وقد جربت المرأة الفستان الذى انتهت نفيسة من خيطة ، وقاست الثياب الداخلية . ثم جلست لصقها وغم نوفى دينك السابق .

ومكثت معها ردحا من الزمن ثم ودعتها وانصرفت. وبسطت نفيسة يدها فرأت قطعتين من ذوات العشرة قروش. وثبتت عيناها عليهما وصدرها جياش وقلبها خافق. ثم قهرها الحياء والهوان، شئ مؤلم، ولكن ينبغى أن أفكر فى هذا. ما جدوى الدماغ؟ روضى نفسك على قبول ما لابد منه. هذه حياتى ولا حياة لى غيرها.. وجاءت الأم وهى لا تزال تنظر إلى النقود فأخذتها من يدها وسألتها:

ـ أجرة الثياب كلها أم الفستان وحده؟

فغمغمت الفتاة:

ـ لا أدرى..

فقالت الأم وهى تزدرد ريقها بصعوبة:

ـ أجرة حسنة على أية حال.

وتحاشت الأم ينم وجهها عن شئ مما يقوم فى نفسها..

ـ ١٤ ـ

ومضت أسابيع. وكان الليل قد أرخى سدوله وشملت الشقة كآبة وما يشبه الصمت. وكان الشقيقان يجلسان إلى المكتب متقابلين، منهمكين فى المذاكرة، على حين جلست الأم ونفيسة فى الصالة فى شبه ظلام قانعتين من النور ـ على سبيل الاقتصاد ـ بما ينبعث من حجرة الأبناء. وتناجيا فى صوت منخفض شأنهما

كل مساء، وكانت هموم العيش أكثر ما يستأثر بحديثهما. لم تزل الحاجة همهما الأكبر، وما انفك الخوف يقض مضجع الأم ويجعلها ترمق المستقبل بقلق وحزن عميق. بيد أن العادة كانت تحدث أثرها الملطف فى تهوين الخطب وإساغته، فلم يعد التقشف فى الغذاء مزعجا كما كان بادئ الأمر. وأخذت نفيسة تألف مهنتها الجديدة، وتتطلع إلى زدبائن جدد، فى شئ من الانكسار وكثير من الرجاء. حتى الشقيقان، تعودا أن يجعلا من غذاء المدرسة وجبتهما الرئيسية، وأن يبيتا بلا عشاء فى صبر وجلد. كانت العادة تحدث أثرها، وكان حزم الأم يسيطر على ضبط أعصاب الأسرة المنكوبة. وفى ذاك المساء جاء فريد أفندى محمد وزوجته يزوران الأسرة فاستقبلتهما الأم ونفيسة بترحاب وقادتاهما إلى حجرة الاستقبال.

وكان فريد أفندى يرتدى جلبابا ومعطفا، أما حرمه فقد التفت بالروب، وكأنهما فى شقتهما بغير ما كلفة. وجلس الرجل على الكنبة ليفسح المجال لجسمه المكتنز وراح يحدث حديثه الودود فى لطف وإيناس. وكانت زوجه ـ ست أم بهية ـ بدينة مثلخ مع ميل إلى القصر، إلا أنها كانت تعد أجمل امرأة فى العمارة لبياض بشرتها وزرقة عينيها. وقد قالت تخاطب أم حسن متسائلة فى لهجة تنم عن العتاب:

ـ لماذا تلزمان البيت هكذا؟ لماذا لا تروحان عن نفسكما بزيارتنا كما كنمتما تفعلان؟

فقالت الأم:

ـ هجم برد الشتاء وما أن يأتى المساء حتى يركبنا الكسل . أما نهارنا فلا يخلو ساعة من هموم البيت . .

فقال فريد أفندى :

ـ نحجن أسرة واحدة ، وينبغى أن نمضى جل فراغنا معا .

كان فريد أفندى ممن لا يبرحون بيوتهم بغير داع قهار . ويرى طيلة فراغه متربعا على الكنبة ومن حوله زوجة وبهية ابنته وسالم ابنه الصغير ، يسمرون ، ويمصون القصب أو يشوون أبا فروة . وكانت الأم تكن مودة صادقة لعطفه ومروءته ، ولا تنسى له ما تجشم من تعب يوم وفاة زوجها . وفضلا عن هذا كله فقد أقرضها بعض المال لحين صرف المعاش ، ولم يكن ينى عن الذهاب إلى وزارة المالية للاستعلام والاستعجال . بيد أنه ك . ان موظفا تافه الشأن وهو ما غاب عن تقدير المرأة . ولم يرق إلى الدرجة السادسة إلا حديثا عن بلوغه الخمسين . وكانت جيرته للأسرة ترجع إلى عهد بعيد . وتوثقت أواصر الصداقة بينهما لطيب معشرهما وقرب أساب المعيشة بين الأسرتين . وكانت حياة لا بأس بها ، ولا تخلو من ألوان الترفيه . ثم نعمت أسرة كامل أفندى برفاهية جديدة حين رقى المرحوم إلى الدرجة السادسة قبل وفاته بخمسة أعوام . واستقبل فريد أفندى عهدا جديدا منذ عامين ، فورث بيتا فى السيدة زلينب يدر إيجار عشرة جنيهات شهريا ، وبلغ به دخله ثمانية وعشرين جنيها مما يعد ثروة فى عام ١٩٣٣ . وبات فريد أفندى سيد عطفة نصر الله ، وزاد ترهلا على ترهل ، ولولا حرص زوجته على الاقتصاد لمواجهة مستقبل فتاتهما

وابنهما الصغير لنفذ الرجل ما أراده يوما من الانتقال إلى شقة بشارع شبرا.

وتنقل بهم الحديث من واد لواد، ثم قال فريد أفندى مفصحا عن رغبة لعلها كانت أول ما بعثه إلى هذه الزيارة:

ـ ياست أم حسن، إنى قاصدك فى رجاء..

فقالت الأم:

ـ مر يا سيدى..

ـ ابنى سالم. ، هو فى السنة الثالثة الابتدائية، ضعيف فى الإنجليزى والحساب. وقد رأيت على سبيل الاقتصاد ـ لأن المدرسى طماعون كما تعلمين ـ أن أعهد إلى حسين وحسنين القيام بهذه المهمة، ساعة كل يوم أو يوما بعد يوم، هذا رجائى يا ست أم حسن.

وأدركت المرأة أن الرجل يهيئ سبيلا غير ماس بالكرامة لنفح ابنيهما بمصروف شهرى يرفه عنهما. هذا واضح كالنهار ويتفق مع ما طبع الرجل عليه من دماقة ورقة. وقالت برقة وحياء:

ـ إن حسين وحسنين ابناك، وهما طوع أمرك..!

فقال الرجل بسرور:

ـ فليعسفانى بسرعة إذن، وليبدءا يوم الجمعة القادم..

وعادوا إلى حديثهم الطويل، ثم غادر الرجل وزوجه الشقة حوالى التاسعة. وهرعت نفيسة إلى حجرة أخويها حاملة خبرا

سارا لأول مرة منذ عهد ليس بالقصير، وقالت بمرح وقد استردت شيئا من طبيعتها الأولى:

ـ مفاجأة!

فرفعا رأسيهما إليهما فى استطلاع فقالت:

ـ فريد أفندى راغب فى اختيار مدرس لسالم . .

ـ وما شأننا فى ذلك؟

ـ منكما؟

ـ لأى مادة؟

ـ الإنجليزى.

فصاح حسنين:

ـ أنا طبعا!

فقالت مبتسمة:

ـ فقال حسين وهو يتنهد:

ـ أنا.

فقالت فى مكر:

ـ يريدكما معا، وطبعا بالمجان!

فهتفا معا فى سرور وقد أدركا ما وراء كلامها:

ـ طبعا!